أهمية السيرة النبوية في ثقافة الداعية

د. عمر يوسف حمزة
قسم التفسير والحديث

محتوى الموضوع

التمهيـد :

أحمد الحق تبارك وتعالى، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله : خير خلق الله، وأحب عباد الله إلى الله.. محمد بن عبد الله.. صلاة وسلاماً يليقان بمقامه الكريم، وصلاة وسلاماً على سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، وصلاة وسلاماً على أصحابه والتابعين، وصلاة وسلاماً على كل من دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعـــد :

فلقد بعث الله تعالى إلى الإنسانيـة خاتم رسله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بشيراً للناس كافة ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه ورحمة للعالمين، لتكون لهم فيه أسوة، ويكون لهم من حياته الشريفة قدوة، ثم يكون مثلاً أعلى للذين يأتون بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - «فقد لبثت فيكم عمراً من قبله، أفلا تعقلون» [1] وذلك أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولد فيهم، وترعرع بينهم، ونشأ أمام أعينهم، وعاش بين ظهرانيهم برهة من الدهر قبل بعثته، فعرفوا أخلاقه كل المعرفة، وجربوا عاداته وأعماله، فهو لم يكن فيهم غريباً، ولا خاملاً ولا مجهول الأحوال[2] .

والوحي الإلهي في هذه الآية : يقدم حياة الرسول وسيرته الطاهرة قبل البعثة دليلاً على نبوته - صلى الله عليه وسلم - وأنَّ رسالته هي من عند الله العظيم، ليؤمن به العرب ويصدقوه فيما يخبر به ويدعو إليه[3] .

لقد ظهر للناس في سيرة الرسل السابقين الذين حملوا رسالات الله عند تبليغهم عقيدة التوحيد الإلهي ما كان موضع العجب من العزيمة والتسليم لأمر الله تعالى، والعفة عن المنهيات والزهد في زهرة الحياة الدنيا، وما كان ولا يزال مثلاً أعلى في هذه الفضائل العظمى، ومناراً للسائرين في ظلمات الحياة.

وكم من ظلمة في الحياة قد ضل بها من ضل ثم أتى على البشر زمان كان فيه بأشد الحاجة إلى الهادي الكامل يضيء له الطريق كله بقوله وعمله، ويجلو الدجى - دجى العقائد والأعمال والأخلاق - بنور تعاليمه وضوء سيرته وجمال خلقه وكمال نفسه، فتكون حياته نبراساً بأيدي الناس فمن اقتبس منه في يمينه سار في ظلمات الحياة آمناً مطمئناً لا يخاف الزلة ولا يخشى العثرة حتى يبلغ غايته، وإنَّ ذلك الهادي الأعظم هو آخر الهداة وخاتم النبيين الذي لم يرسل بعده رسول ولن يرسل «يا أيها

---

١ - سورة يونس آية ١٦.

٢ - الرسالة المحمدية : السيد سليمان الندوي، ص ٢١-٢٢ بتصرف.

٣ - المصدر السابق ص ٢٤ بتصرف، وانظر تفسير التحرير والتنوير، جـ ١١، ص ١١٦.

النبي إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مُنيراً»[٤] .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم شهد في هذا العالم تعليم الله وهدايته، وبشر الصالحين بالنجاح والفلاح، فهو مبشر. وقد نادى الغافلين وأسمع الصم وحذر المذنبين عاقبة ذنوبهم، وأنذر المشرفين على الهلاك وأيقظ النائمين، فهو منذر. وقد دعا إلى الله من ضل عن سبيله، فهو داع. وإنْ هو إلا نور يستضاء به إلى يوم القيامة، ونبراس يستنار بأشعته في شعاب الحياة الملتوية فتنكشف به الظلمات المتراكمة فهو السراج المنير إلى الأبد[٥] .

إن جميع الأنبياء كانوا شهداء ودعاة ومبشرين ومنذرين، بيد أن هذه الصفات لم تكن سواسية في جميع الرسل، بل كان بعضها في بعضهم أظهر من أخواتها، وأما من كان جامعاً لهذه الصفات كلها واتصف بها جميعاً فكان مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وكانت حياته ملأى بهذه النعوت والشئون وسيرته ممتازة بهذه الخصال والخلال، فهو النبي الجامع محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بعث ليختم الله به النبيين والنبوات فأعطى الرسالة الأخيرة ليبلغها إلى البشر كافة، ولقد حظيت التعاليم المحمدية بالخلود واختصت بالبقاء والدوام إلى يوم القيامة فكانت نفس محمد صلى الله عليه وسلم جامعة لجميع الأخلاق العالية والعادات السنية، وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق[٦] .

ولقد توفرت في شخصية رسول الله الكريم صلى الله عليه وسلم أربع خصال هي التي جلعته جديراً بأن يكون قدوة للناس في الحياة – وكل من يريد أن يكون أسوة للناس وقدوة يجب أن يتصف بها – وإيجاز هذه الخصال فيما يلي :

١ – أن تكون «تاريخية» أي إن التاريخ الصحيح المحص يصدقها ويشهد لها.

٢ – أن تكون «جامعة» أي محيطة بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شئونها.

٣ – أن تكون «كاملة» أي أن تكون متسلسلة لا تنقص شيئاً من حلقات الحياة.

---

٤ – سورة الأحزاب : ٤٥-٤٦.

٥ – الرسالة المحمدية ص ٤٠.

٦ – السيرة النبوية : السيد الحسن علي الحسن الندوي ص ٣٩١ بتصرف وانظر الرسالة المحمدية ص ٤١.

٤ - أن تكون «عملية» أي أن تكون الدعوة إلى المبادئ والفضائل والواجبات بعمل الداعي وأخلاقه، وأن يكون كل ما دعا إليه بلسانه قد حققه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية، فأصبحت أعماله مثلاً عليا للناس يأتسون بها[٧] .

وسوف أتناول في هذا البحث «أهمية السيرة النبوية في ثقافة الداعية» من خلال الفصول التالية :

الفصل الأول : تعريف السيرة : لغة واصطلاحاً.

الفصل الثاني : العرض القرآني للسيرة.

الفصل الثالث : الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى في الحياة.

الفصل الرابع : أثر السيرة النبوية في الدعوة والتربية.

وقد ذيلت البحث بقائمة تنتظم أهم المراجع التي استفدت منها في كتابته والله اسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ولبنة صالحة في تكوين ثقافة الداعية إنه ولي ذلك والقادر عليه وحده وهو حسبي ونعم الوكيل.

الفصل الأول

تعريف السيرة لغة واصطلاحاً

السيرة : لغة : الطريقة، وسار في الناس سيرة حسنة أو قبيحة، والجمع سير، مثل سدرة وسدر، وغلب اسم السير في ألسنة الفقهاء على المغازي[٨] .

فيتضح لنا من ذلك أن السيرة هي الطريقة، حسنة كانت أو سيئة، قال خالد بن عتبة الهذلي :

فلا تجزَعَنَّ من سيرة أنت سرتها فأول راضٍ سُنَّةً من يسيرها[٩] .

---

٧ - الرسالة المحمدية، ص ٤٢، بتصرف.

٨ - المصباح المنير : أحمد بن محمد الفيومي، ص ١١٤، ومختار الصحاح، ص ٣٣٩.

٩ - لسان العرب لابن منظور، جـ ٢، ص ١٧٠، والقاموس المحيط، مادة : سيدر.

وفي الكتاب العزيز «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»[١٠] .

وفي التنزيل العزيز أيضاً يقول جل علاه : «سنعيدها سيرتها الأولى»[١١] .

قال الفراء : طريقتها. يقول : نردها عصي كما كانت[١٢] .

وأما السيرة في الاصطلاح :

إذا كانت السنة النبوية في اصطلاح المحدثين : ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقِيَّةً أو خُلُقِيَّة، أو سيرة، سواء أكان قبل البعثة أم بعدها[١٣] . وهي مرادفة للحديث عند الأكثر[١٤] فإذا كان هذا هو تعريف السنة في مصطلح المحدثين، فإنَّ سيرته صلى الله عليه وسلم هي السنة. لكن علماء السير نحوبها الناحية التاريخية فبعدت عن السنة والحديث من حيث الوثوق بمحتوياتها، فهم يتساهلون في سردها تساهلهم في التاريخ، حتى الذين عنوا منهم بذكر الأسانيد لم يعنوا بالصحيح منها، بل جمعوا صحيح الروايات مع ضعيفها، وصرحوا بمنهجهم هذا حين قالوا : إذا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحرام والحلال والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا في الرجال.

وإذ روينا في الفضائل والثواب والعقاب والسير تساهلنا وتسامحنا ويمكننا أن نتساءل ما الذي حملهم على هذا ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول : لعلهم قصدوا أن العقائد والفروع شريعة تعتمد عليها العبادة والطاعة، وأما السيرة النبوية فهدفها العظة والعبرة، وما جاء في السيرة يؤخذ على أنه ترغيب أو ترهيب أو تكريم وتبجيل، أو تصوير وتحسين[١٥] .

---

١٠ - سورة آل عمران آية : ١٣٧.

١١ - سورة طه آية : ٢١.

١٢ - زاد المسير، جـ ٥، ص ٢٨٠. ولسان العرب مادة سير

١٣ - السنة ومكانتها : ص ٥٩، مصطفى السباعي، وتوجيه النظر /٢.

١٤ - دراسات في الحديث، جـ ١، ص ١، د. الأعظمي، ولمحات في أصول الحديث ص ٣١.

١٥ - دراسات في السيرة وعلوم السنة. د. موسى شاهين ود. صلاح الدين شلبي، ص ٥.

خلاصة القول :

أن السيرة معناها في اللغة الطريقة سواء كانت سيئة أو حسنة وقد استعملها الاسلام في معناها اللغوي ثم خصصها بطريقة النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن ناحية أخرى : فإنَّ هذه الكلمة حينما تطلق يراد بها سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

والسيرة النبوية هي ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلْقِيَّةَ أَوْ خُلُقِيَّةْ، سواء أكان قبل البعثة أم بعدها، وهي بهذا مرادفة للسنة.

ولكن العلماء تساهلوا في روايتها وتشددوا في رواية السنة.

الفصل الثاني

العرض القرآني للسيرة

من المعلوم أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لفهم الملامح العامة لحياة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وإنَّ أهم ما في سيرته صلى الله عليه وسلم وأوثقها وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهو الذي لم يشك في صحته العدو اللدود فضلاً عن الحبيب الودود، والقرآن يقص علينا جميع مناحي السيرة النبوية وطرفاً من حياته صلى الله عليه وسلم قبل النبوة، فيذكر لنا يتمه وفقره وتحنثه، كما يذكر لنا شئونه بعد النبوة من هبوط الوحي الإلهي عليه وتبليغه إياه والعروج به وعداوة الأعداء وهجرته وغزواته، وفي القرآن الكريم ذكر أخلاقه صلى الله عليه وسلم، كل ذلك جاء مذكوراً في القرآن ببيان واضح وأسلوب متين رائق، ومن ذلك نعلم أنه لم تطرق أذن التاريخ سيرة رجل بأحسن ولا أصح ولا أوثق من سيرة محمد صلى الله عليه وسلم(١٦) . ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن القرآن الكريم قد عرض سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد أسلوبين :

الأول : سرد بعض مشاهد من حياته وسيرته قبل البعثة وبعدها.

---

١٦ - الرسالة المحمدية، ص ١٩ - بتصرف - وفقه السيرة ص ١٦.

الثاني : التعليق على الوقائع والأحداث، التي تعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفه منها.

أمّا فيما يتعلق بالأسلوب الأول فإننا نجد القرآن الكريم يتناول جوانباً من حياته وسيرته قبل النبوة كالآيات التي تتحدث عن يتمه وفقره قال جل شأنه : «ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغني»[17] . كما أشار القرآن إلى كيفية بدء الوحي ونزوله فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخلو - غالباً - بغار «حراء» فيمكث فيها ليالي متواليات وكان يتزود لذلك. وكان يتعبد ويدعو على الطريقة الإبراهيمية الحنيفية والفطرة السليمة المنيعة إلى الله[18] .

وكان في إحدى المرات إذ جاءه اليوم الموعود لبعثته، وكان ذلك في رمضان[19] فجاءه الملك بحراء، فقال : اقرأ، قال : ما أنا بقارئ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال : اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتي بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال إقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال : «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم»[20] .

وكان ذلك أول يوم من أيام النبوة، وأول وحي من القرآن[21] . وفضلاً عن ذلك فإنَّ القرآن الكريم يشير إلى نسبة الوحي إلى الله جل ثناؤه في قوله الحق تعالى : «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم»[22] .

فقوله «ما كنت» أي قبل غار حراء، والنبي في تلك الفترة لم يكن لديه سوى

---

١٧ - سورة الضحى الآيات ٦، ٧، ٨.

١٨ - إقرأ حديث عائشة - رضي الله عنها - باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، راجع فتح الباريء، جـ ١، ص ٢١، وانظر السيرة النبوية ص٨٢.

١٩ - تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٣٩٢.

٢٠ - نفس المصدر وسورة العلق ١-٥.

٢١ - السيرة النبوية ص ٨٣.

٢٢ - سورة الشورى : ٥٢.

معلوماته الشخصية، وهي معلومات تبدو لنا عديمة الصلة بالوحي القرآني، إذا أعطينا الآية المذكورة كل معناها التاريخي، والآية تثبت عرضاً ولكن بطريقة صريحة مصدر الوحي القرآني بعد حراء، وهو على كل حال قبل «إيحاء الروح» المأخوذ من قوله : «أوحينا إليك روحاً» هذه النقطة ثابتة تاريخياً.

وفضلاً عن ذلك فإنَّ القرآن قد دأب على تذكيره، وتأكيد هذا الفصل في آيات كثيرة، وهاك آية تؤدي ما أدته الآية الأولى : «وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك»[٢٣] .

أمَّا من الوجهة النفسية المتصلة بشعور النبي صلى الله عليه وسلم، فإنَّ هذه الآية تعزز ما قبلها في فصل السنة المحمدية عن الوحي القرآني[٢٤] .

وإنَّ القرآن ليلح كثيراً في هذه النقطة كما يمكن أن ندركه في قول الله تعالى : «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق، وقد آتيناك من لدنا ذكراً»[٢٥] .

وفي آيات أخرى يبدو القرآن وكأنما يشير إلى تحديد مقصود للوحي في نقطة معينة بالذات، كأنما ليعلق ضمير النبي واهتمامه بأشياء لم تكن بعد قد أوحيت، أو أن تنزل عليه قط، ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى : «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك»[٢٦] .

ففي هذه الآية يمضي الوحي القرآني ليس أبعد من الفكرة المحمدية فحسب، ولكن أبعد مما قد أوحي فعلاً[٢٧] .

ومن الممكن أن نورد آيات كثيرة ولكن المجال لا يسمح بإيراد كل الآيات المتعلقة بهذا الموضوع ومن الأمثلة على ذلك قوله جل شأنه : «واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون»[٢٨] وهي تؤدي نفس المعنى المتقدم.

---

٢٣ - سورة العنكبوت : ٤٨.

٢٤ - الظاهرة القرآنية ص ٢٠٧.

٢٥ - سورة طه آية ٩٩.

٢٦ - سورة القصص آية ٧٨.

٢٧ - الظاهرة القرآنية ص ٢٠٨.

٢٨ - سورة الزخرف آية ٤٥.

وأحياناً يرد في القرآن الكريم ما يفصل بين الفكرة المحمدة والفكرة القرآنية بمناسبة حادث يقع في الحياة العادية مثل حديث القرآن عن المنافقين في قول الله تعالى : «ولو شاء لأرينكهم فلعرفتهم بسيمهم»[٢٩] .

والمعنى : لأريناك أشخاصهم فعرفتهم، أو لذكرنا لك أوصافهم فعرفتهم بها، ثم يحتمل أنَّ الله شاء ذلك وأراهم للرسول صلى الله عليه وسلم، فعن أنس «ما خفي على النبي بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم» ذكره البغوي والثعلبي بدون سند[٣٠] .

وأخيراً، قد نرى الفصل بين في التعارض بين الفكرة المحمدية والفكرة القرآنية كما في قول الله جل شأنه : «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه»[٣١] .

فلقد كان النبي في مستهل دعوته يجهد ذاكرته وهو يعاني حالة التلقي، لكي يثبت الآيات كما نزلت، وتلك حالة غريزية تلقائية تحدث لأي إنسان ينصت لآخر، وهو يريد أن يحفظ كلامه، فهو يكرره في نفسه.

فالآية المذكورة تأتي بما يضاد هذا السلوك الطبيعي، إذ يطلق النبي لارادته العنان إلى مدى معين، حتى يحفظ بالتكرار ما تفجر في مجال عقله، فأثاره جرسه وأيقظه[٣٢] .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يريد أمراً والله تعالى يريد غيره وهكذا نلاحظ مناقضة مزدوجة بين الارادتين، هذه المناقضة المزدوجة لارادة النبي، ولقانون وظيفة التذكر، تثبت ظاهرة ذات مجال مطلق، مستقل عن العوامل النفسية والزمنية، وبهذا تؤكد خاصتي السمو والاطلاق لآيات القرآن الكريم[٣٣] .

مراحل الدعوة في القرآن

تناولت آيات القرآن وصف المراحل التي مرت بها الدعوة الاسلامية منذ أن أمر الله

---

٢٩ – سورة محمد آية ٣٠.

٣٠ – التحرير والتنوير، جـ ٢٦، ص ١٢١.

٣١ – سورة طه آية ١١٤.

٣٢ – الظاهرة القرآنية ص ٢٣٥.

٣٣ – المصدر السابق ص ٢٣٥ بتصرف.

تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته الأقربين ومما هو معلوم أن الدعوة الإسلامية مرت بأربع مراحل :

(أ) المرحلة الأولى : الدعوة سراً، واستمرت ثلاث سنوات(٣٤) .

(ب) المرحلة الثانية : الدعوة جهراً وباللسان فقط دون قتال. ونزل القرآن الكريم يأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر بالدعوة حينما نزل عليه قول الله تعالى : «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»(٣٥) وقال جل شأنه : «وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل إنّي بريء مما تعملون، وتوكل على العزيز الرحيم، الذي يريك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين»(٣٦) . وحين استجاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأمر ربه وقام بتنفيذه فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم - وصعد على جبل «الصفا» ونادى بأعلى صوته، «يا صباحاه» وكانت صيحة معروفة مألوفة، كلما أحس إنسان بخطر عدو، يغير على بلد، أو على قبيلة، على غفلة منهما، نادى : «يا صباحاه» فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء، واجتمعوا إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث إليه رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغيير عليكم، صدقتموني؟».

فهداهم ذكاؤهم وأنصافهم إلى تصديق هذا المخبر الصادق الأمين فقالوا: نعم(٣٧).

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»(٣٨) .

---

٣٤ - سيرة ابن هشام، جـ ١، ص ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١ وانظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ٨٦.

٣٥ - سورة الحجر آية ٩٤.

٣٦ - سورة الشعراء الآيات من ٢١٤ إلى ٢١٩.

٣٧ - أصل الحكاية في ابن كثير، جـ ١، ص ٤٥٥-٤٤٦، رواية عن الإمام أحمد ابن حنبل عن ابن عباس، قال وأخرجاه من حديث الأعمش به نحوه وانظر سيرة ابن هشام، جـ ١، ص ٢٦٤-٢٦٥ باختصار.

٣٨ - السيرة النبوية، ص ٨٨.

فقال أبو لهب عند ذلك : تباً لك سائر اليوم.. ألهذا جمعتنا؟

فنزل قوله تعالى : «تبت يد أبي لهب وتب» السورة كاملة(٣٩)

(جـ) المرحلة الثالثة : الدعوة جهراً مع قتال المعتدين والبادين بالقتال واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية(٤٠) .

(د) المرحلة الرابعة : الدعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإسلام، وهذه المرحلة هي التي استقر فيها أمر الشريعة الإسلامية وحكم الجهاد في الإسلام(٤١) .

آيات العتاب :

ومما يبين جزءاً مهماً من سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ما ورد في القرآن الكريم من آيات العتاب قال تعالى : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حللاً طيباً واتقوا الله إنَّ غفور رحيم»(٤٢) .

قال ابن عطية : هذه الآية تتضمن – عندي – معاتبة من الله عز وجل لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم، والمعنى : ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان، والإخبار هو لهم، ولذلك استمر الخطاب بـ (تريدون)، والنبي صلى الله عيله وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب، وجاء ذكر النبي صلى الله عليه

٣٩ – هذا الخبر رواه الشيخان، فرواه البخاري، جـ ٨، ص ٥٦٧، ورواه مسلم جـ١، ص ١٩٤ بمعناه، ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره جـ ٣٠، ص ٣٣٦، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير، جـ ٩، ص ٢٥٨، وأورده السيوطي في الدر المنثور، جـ ٦، ص ٤٠٨، وزاد نسبته لغير واحد من أهل العلم.

٤٠ – سيرة ابن هشام، جـ ١، ص ٢٥٢، ٢٥٥، والسيرة النبوية للندوي، ص ٨٧.

٤١ – كتاب خاتم النبيين – صلى الله عليه وسلم – الإمام محمد أبو زهرة، جـ ١، ص ٣٢٢، ٣٢٣، وفقه السيرة د. محمد سعيد البوطي ص ٦٢، وانظر طبقات ابن سعد، جـ ٣، ص ٣٧، وسيرة ابن كثير جـ ١، ص ٤٣٩–٤٤١.

٤٢ – سورة الأنفال، الآيات ٦٧، ٦٨، ٦٩.

وسلم في الآية مشيراً إلى دخوله صلى الله عيله وسلم في العتب حين لم ينه عن ذلك حين رآه من العريش وأنكره سعد بن معاذ، ولكنه صلى الله عليه وسلم شغله بغت الأمر وظهور النصر فترك النهي عن الاستبقاء، ولذلك بكى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حين نزلت هذه الآية[٤٣] وقد أورد الإمام مسلم في هذه الآية حديثاً طويلاً[٤٤] .

وقوله تعالى : «عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين»[٤٥] .

هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق واستأذنوا دون اعتذار، منهم عبد الله بن أبي، والجدبن قيس، ورفاعة بن التابوت، ومن تبعهم، فقال بعضهم : ائذن ولا تفتني، وقال بعضهم : ائذن لنا في الاقامة، فأذن لهم رسول الله استبقاء منه عليهم، وأخذاً بالأسهل بالأمور، وتوكلاً على الله.

وقدم ذكر العفو قبل العتاب إكراماً له صلى الله عليه وسلم، وقال عمرو بن ميمون الأودى : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صدع برأيه في قصتين دون أن يؤمر فيهما بشيء. هذه وأمر أسارى بدر، فعاتبه الله فيهما[٤٦] .

وقول الله تعالى : «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشه فلما قضي زيد منها وطراً زوجناكما لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم إذا قضو منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً»[٤٧] .

---

٤٣ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، جـ ٦، ص ٣٧٦.

٤٤ – انظر صحيح مسلم، جـ ٣، ص ١٣٨٣–١٣٨٥، واخرجه الطبري : ٦٣/١٤، ورواه أحمد في المسند رقم ٢٠٨ و٢٢١ مطولاً. وروى بعضه أبو داود في سننه رقم ٢٦٩٠ ورواه الترمذي ١٣٤/٢ مختصراً، والواحدي في أسباب النزول مطولاً ١٣٧–١٣٨ وأورده ابن الجوزي في زاد المسير، جـ ٢ ص ٣٧٩.

٤٥ – سورة التوبة، الآيات ٤٣–٤٤.

٤٦ – المحرر الوجيز لابن عطية، جـ ٦، ص ٥٠٥–٥٠٦، وزاد المسير، جـ ٣، ص ٤٤٥ وفتح القدير للشوكاني، جـ ٢، ص ٣٦٥.

٤٧ – سورة الأحزاب، آية ٣٧.

أخرج ابن جرير بسنده عن عائشة رضي الله أنها قالت : لو كتم محمد صلى الله عيله وسلم شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم (وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)(٤٨) .

قال العلماء : وإنما عوتب في هذه القصة على شيئين :

أحدهما : أنه أخبر بأنها ستكون زوجة له، فقال لزيد : «أمسك عليك زوجك» فكتم ما أخبره الله به من أمرها حياء من زيد أن يقول له : إن زوجتك ستكون امرأتي(٤٩) .

والثاني : أنه لمَّا رأى اتصال الخصومة بين زيد وزينب، ظنَّ أنهما لا يتفقان وأنه سيفارقها، وأضمر أنه إن طلقها تزوَّجتُها صلة لرحمها، وإشفاقاً عليها، لأنها كانت بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، فعاتبه الله على إضمار ذلك وإخفائه حين قال لزيد : «أمسك عليك زوجك»، وأراد منه أن يكون ظاهرة وباطنه عند الناس سواء، كما قيل له في قصة رجل أراد قتله : هلا أو مأت إلينا بقتله؟ فقال : «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»(٥٠) ذكر هذا القول القاضي أبو يعلي - رحمة الله عليه.

ومن آيات العتاب قول الباري جل شأنه : «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم»(٥١) .

يبين لنا سبب نزول هذه السورة الكريمة أنه ليس لأحد أن يحرم على نفسه ما أحل

---

٤٨ - تفسير ابن جرير، جـ ٢٢، ص ١٣، وأخرج أيضاً من قول الحسن عن عائشة قالت : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية أشد عليه من هذه الآية، ولو كتم شيئاً من الوحي لكتمها، ورواه الترمذي : ١٥٣/٢ بنحوه وقال : هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه مسلم في صحيحه، جـ ١، ص ١٦٠ وأورده ابن كثير، جـ ٣ ص ٤١٩، وأورده السيوطي في الدر المنثور جـ ٥ ص ٢٠٢، وانظر فتح الباريء جـ ٨ ص ٤٠٣.

٤٩ - أخرجه الطبري، جـ ٢٢، ص ١٣، ورواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من طريق السدى، قال الحافظ ابن حجر عنه في (الفتح) : وهو أوضح سياقاً وأصح إسناداً إليه. وقال الألوس في تفسيره عن هذا المعنى : وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين، كالزهري، وبكر بن العلاء، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، اهـ. أقول : وقد ذكره ابن الجوزي في زاد المسير، جـ ٦، ص ٣٨٧، وانظر أحكام القرآن لابن العربي، جـ ٣، ص ١٥٤٠.

٥٠ - رواه أبو داود في سننه رقم (٢٦٨٣) و (٤٣٥٩) من حديث أحمد بن المفضل وذكره ابن كثير في البداية والنهاية، جـ ٤، ص ٢٩٨، من رواية البيهقي من حديث أحمد بن المفضل، ورواه النسائي (في المحاربة).

٥١ - سورة التحريم، آية ١.

الله له لارضاء أحد، إذ ليس ذلك بمصلحة له ولا للذي يسترضيه.

قال الشوكاني : وهذا هو الحق أن تحريم ما أحل الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه، فالتحليل والتحريم هو لله سبحانه لا إلى غيره، ومعاتبته لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك[٥٢] .

قال الحافظ ابن حجر[٥٣] : وقد اختلف في الذي حرم على نفسه وعوتب على تحريمه كما اختلف في سبب حلفه على أن لا يدخل على نسائه على أقوال، فالذي في «الصحيحين» أنَّه العسل، وقول آخر : إنه في تحريم جاريته مارية، ووقع في رواية يزيد بن رومان عن عائشة عند ابن مردوية ما يجمع القولين - وذكر غيره - ثم قال : والراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها، بخلاف العسل، فإنه اجتمع فيه جماعة منهن، قال : ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها، ويؤيده شمول الحلف للجميع، ولو كان مثلاً في قصة مارية فقط لاختص بحفصة وعائشة. اهـ.

والبحث في هذا الموضوع والمذاهب فيه كثيرة والمقالات فيه طويلة[٥٤] . ومن ذلك قول تعالى : «عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى»[٥٥] .

ذكر المفسرون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يناحى عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، وأمية وأبيا ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم، فجاءه ابن أم مكتوم الأعمى، فقال : علمني يا رسول الله مما علمك الله، وجعل يناديه، ويكرر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بكلام غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجهه صلى الله عليه وسلم لقطعه كلامه، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقبل على القوم يكلمهم، فنزلت هذه الآيات، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه بعد ذلك،

---

٥٢ - فتح القدير للشوكاني، جـ ٥، ص ٢٥٠.

٥٣ - انظر فتح الباري، جـ ١١، ص ١٩٩.

٥٤ - انظر : زاد المسير لابن الجوزي، جـ ٨، ص ٣٠٦، وأحكام القرآن لابن العربي، جـ ٤، ص ١٨٤٤، وتفسير التحرير والتنوير، جـ ٨، ص ٣٤٥، وفتح القدير ٥/٢٥٠.

٥٥ - سورة عبس، الآيات ١، ٢، ٣، ٤.

ويقول : مرحباً – بمن عاتبني فيه ربي[٥٦] .

ويظهر أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على هذه الفرصة أن لا تفوته، وأملاً في أن يجيب عبد الله بن أمّ مكتوم في أي وقت آخر فعاتبه الله على ذلك في سورة : «عبس وتولى أن جاءه الأعمي» وأنكر عليه اجتهاده هذا .

ويؤخذ من هذا أنه ليس لأحد من الناس أن يغير شيئاً من أحكام الاسلام ومبادئه، أو يتجاوز شيئاً من حدوده أو يستهين بها باسم اتباع الحكمة في النصيحة والدعوة، لأنَّ الحكمة لا تعتبر حكمة إلا إذا كانت مقيدة ومنضبطة ضمن حدود الشريعة ومبادئها وأخلاقها .

كما وردت آيات تتحدث عن استماع نفر من الجن لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين انصرافه من الطائف، فقد أورد قصة ذلك أصحاب السير وغيرهم من أهل الحديث[٥٧] قال ابن اسحاق : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، فاستمعوا له، فما فرع من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابو إلى ما سمعوا .

وقد قص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم في قوله : «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن» إلى قوله : «ويجركم من عذاب أليم»[٥٨] وقوله تعالى : «قل

---

٥٦ – ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ٣٣٣ بغير سند، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف، ص ١٨١ ذكره الثعلبي بلا إسناد، وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية العوفي عن ابن عباس نحوه، وأخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، وابن حبان عن عائشة قالت : أنزلت سورة «عبس وتولى» في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول : أترى بما أقول بأساً؟ فيقول : لا، ففي هذا أنزلت. انظر زاد المسير، جـ ٩، ص ٢٧، والقرطبي ٢١٤/١٩، ومعاني القرآن للفراء ص ٣٥٨.

٥٧ – سيرة ابن هشام، جـ ١، ص ٤١٩ فما بعدها، وسيرة ابن كثير، جـ ٢، ص ١٤٩، وزاد المعاد، جـ ١، ص ٣٠٢.

٥٨ – سورة الأحقاف، الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢.

أوحي إلي أنَّه استمع نفر من الجن فقالوا إنَّا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً»(٥٩) .

فـفي هذه الآيات دليل على وجـود الجن وأنهم مكلفـون، وأنَّ منهم من آمن بالله ورسوله، ومنهم من كفر ولم يؤمن، وقد ارتفعت هذه الدلالة إلى درجة القطع بحديث القرآن عنهم، وقد أورد قصة الجن الإمامان البخاري ومسلم والترمذي على نحو قريب وبتفصيل آخر(٦٠) . كما تحدثنا آيات أخرى عن معجزة الإسراء والمعراج، قال جل شأنه : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بركنا حوله لنريه من آيتنا إنه هو السميع البصير»(٦١) وقوله تعالى : «ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأي من آياته الكبرى»(٦٢) .

وقد عرضت آيات أخرى لهجرته حينما تآمر المشركون على قلته قال تعالى : «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين»(٦٣) وقول الحق تعالى : «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» الآية(٦٤) كما عرض القرآن لبعض غزواته مثل غزوة بدر الكبرى التي أعزَّ الله تعالى فيها الإسلام والمسلمين ونصر فيها رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – فقد نزلت آيات كثيرة تتحدث عن هذه الغزوة المباركة منها قول الله جل شأنه : «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون»(٦٥) كما نزلت فيها آيات أخرى تنظم توزيع الغنائم وآيات تتحدث عن

---

٥٩ – سورة الجن، الآية ١ فما بعدها.

٦٠ – انظر صحيح البخاري، جـ ٦، ص ٧٣، وفتح الباري، جـ ٨، ص ٤٧٣، وعيون الأثر لابن سيد الناس، جـ ١، ص ١١٨.

٦١ – سورة الاسراء، آية ١، وانظر قصة الاسراء والمعراج، في فتح الباري على صحيح البخاري، ج٧، ص١٣٦، ١٣٧ والنووي على صحيح مسلم، جـ ٢، ص ٢٩٠.

٦٢ – سورة النجم، الآيات ١٧، ١٨، ١٩، وانظر سيرة ابن كثير، جـ ٢، ص ٩٦، وسيرة ابن هشام، جـ ١، ص ٣٩٩.

٦٣ – سورة الأنفال، آية ٣٠.

٦٤ – سورة التوبة، آية ٤٠.

٦٥ – سورة آل عمران، آية ١٢٣.

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين من أساري بدر فقد عرضت لتفصيل ذلك سورة الأنفال «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأنَّ لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير»[٦٦] .

وكذلك تناولت آيات القرآن الكريم غزوة أحد قال تعالى : «وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم» إلى قوله تعالى : «الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فاد رأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين»[٦٧] فقد أنزل الله هذه الآيات تعليقاً على ارجاف اليهود والمنافقين وبياناً لحكمة ما حصل في غزوة أحد[٦٨] وفي سورة الأحزاب عرض دقيق مفصل لغزوة الخندق فقد بينت هذه السورة الكريمة عناية الله تعالى بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين، والثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدِّين، ونعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب. قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً»[٦٩] .

كما عرضت آيات من كتاب الله تعالى غزوة حنين التي كانت درساً في العقيدة الإسلامية، وقانون الأسباب والمسببات من نوع ذلك الدرس الذي أوحت به غزوة بدر، بل متمماً له، فإذا كانت موقعة بدر قد قررت للمسلمين أنَّ القلة لا تضرهم شيئاً في جنب كثرة أعدائهم إذ كانوا صابرين ومتقين، فإنَّ غزوة حنين قد قررت للمسلمين أنَّ الكثرة أيضاً لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين، وكما نزلت آيات من كتاب الله تعالى في تقرير عبرة «بدر» فقد نزلت آيات منه أيضاً في تقرير العبرة التي ينبغي أن تؤخذ من «حنين» وأنزل الله جل شأنه هذه العظة البليغة في قوله تعالى : «ويوم حنين إذا

---

٦٦ – سورة الأنفال، الآية ٤١ فما بعدها.

٦٧ – سورة آل عمران، الآيات ١٤٩–١٦٨.

٦٨ – انظر سيرة ابن هشام، جـ ٢، ص ٦٢، وتاريخ الطبري، جـ ٢، ص ٥٠٠، وترتيب مسند الإمام أحمد : ٢٢–٥٢ وصحيح البخاري جـ ٥ ص ٤٩ وانظر الآيات ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤ فما بعدها من سورة آل عمران.

٦٩ – سورة الأحزاب، آية : ٩ إلى غير ذلك من الآيات التي وردت في السورة.

أعجبتكم كثرتكم فلن تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم»[٧٠] .

إلى غير ذلك من الآيات التي عرضت هذا الجانب من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

أما الأسلوب الثاني : الذي عرض به القرآن الكريم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو التعليق على الوقائع والأحداث، وذلك للإجابة على ما قد استشكل في شأنها، أو الكشف عن بعض القوامض فيها، أو لفت نظر المسلمين إلى وجه العبرة والموعظة فيها، وكل ذلك إنما يرتبط بجانب ما من سيرته صلى الله عليه وسلم، أو شأن من شئونه فهي بذلك تجلى لنا الكثير من مراحل حياته ومختلف شئونه وأعماله. من ذلك قصة الأفك وما فيها من دروس وعظات، فقد أنزل الله تعالى عشر آيات ببراءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وإدانة المنافقين والخاطئين، قال تعالى : «إنَّ الذين جاءوا بالافك عصبية منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير – إلى قوله تعالى : «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنَّ الله رؤوف رحيم»[٧١] .

ومثل حادثة الظهار التي نزل فيها قول الله تعالى : «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير» إلى قوله جل شأنه : «وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم»[٧٢] وفي اسم هذه المجادلة ونسبتها وسبب نزول هذه الآيات آراء لأهل العلم[٧٣] .

كما تولى القرآن الكريم الاجابة على الأسئلة التي كانت توجه للنبي صلى الله عليه

٧٠ – سورة التوبة، الآيات ٢٥، ٢٦، ٢٧.

٧١ – سورة النور، الآيات ١١ إلى ٢٠.

٧٢ – سورة المجادلة، الآيات من ١ إلى ٤.

٧٣ – انظر زاد المسير، جـ ٨، ص ١٨٠، ١٨١، وأسباب النزول للواحدي، ص ٣٠٤، وتفسير الطبري، جـ ٢، ص ٦٠٥، والمستدرك للحاكم ٨٨١/٢، وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٦٣)، والسنن الكبرى للبيهقي، جـ ٧، ص ٣٨٢، وتفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٣٤٢، طبعة دار المعرفة، بيروت سنة ١٩٨٦م.

وسلم، ومن ذلك الأسئلة التي يطرحها بعض المشركين وأهل الكتاب، وأحياناً يرد السؤال من المسلمين، كما في قوله تعالى : «يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون»[٧٤] . فقد ذكر المفسرون أن سبب نزولها وهو أن رجلين من الصحابة قالا : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد ويمتلىء حتى يستدير ويستوي، ثم لايزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ فنزلت : «يسألونك عن الأهلة... الخ» هذا قول ابن عباس[٧٥] . وكقول الله تعالى : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي»[٧٦] . جاء في سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بناس من اليهود، فقالوا : سلوه عن الروح؟ فقال بعضهم : لا تسألوه، فيستقبلكم بما تكرهون. فأتاه نفر منهم، فقالوا : يا أبا القاسم : ما تقول في الروح؟ فسكت، ونزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود[٧٧] .

كما عرض القرآن الكريم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وبين ما اتصف به من الرحمة والرأفة والشفقة على المسلمين، قال تعالى : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم»[٧٨] إلى غير ذلك من آيات الكتاب العزيز التي تناولت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مختلف الجوانب، وهذا الفصل من البحث يصلح إذا توسعت فيه ليكون بحثاً مستقلاً ولذلك اكتفي فيه بهذه الاشارات السريعة على أمل أن أعود إليه في بحث منفصل والله المستعان.

---

٧٤ – سورة البقرة آية ١٨٩.

٧٥ – زاد المسير، جـ ١، ص ١٩٥.

٧٦ – سورة الاسراء، آية ٨٦.

٧٧ – انظر المسند، جـ ٥، ص ٢٥٤، والبخاري ٣٠٣/٨، ومسلم ٢١٥٢/٤، والترمذي ١٤٢/٢، وانظر ابن كثير ٦٠/٣.

٧٨ – سورة التوبة، آية ١٢٨.

خلاصة القول :

١ - إنَّ القرآن الكريم هو المصدر الأول لفهم الملامح العامة لحياة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -.

٢ - إنَّ أهمَّ ما في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأوثقها، وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٣ - عرض القرآن الكريم جميع مناحي السيرة النبوية قبل النبوة وبعدها فذكر يتم النبي وفقره، وتحنثه بغار حراء.

٤ - عرض القرآن الكريم شئونه صلى الله عليه وسلم بعد النبوة من هبوط الوحي الإلهي عليه وتبليغه إياه والعروج به.

٥ - كما تناول عداوة الأعداء وتآمرهم على قتله وحماية الله تعالى له وهجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

٦ - وصف القرآن الكريم مشاهد من غزواته وإمداد الله تعالى له بالملائكة ونصره على أعدائه والتمكين له في الأرض.

٧ - بين القرآن جانباً من معاملته لأزواجه أمهات المؤمنين الطاهرات، كما عرض لحياته مع أصحابه وحسن معاملته لهم رضي الله عنهم. وأسلوبه في الدعوة إلى الله تعالى كما رسمتها آيات القرآن الكريم.

٨ - تولى القرآن الكريم التعليق على الأحداث والوقائع - وكذلك من خلال الاجابة على ما قد يشكل، وكشف الغوامض التي تحيط بالأحداث ولفت نظر المسلمين إلى ما فيها من عبرة وموعظة.

٩ - إنَّ حديث القرآن الكريم عن ذلك كله إنما يأتي بإيجاز فهو لا يتعدى بيان الملامح العامة والعرض الإجمالي السريع للوقائع والأخبار. هذا والله تعالى أعلم.

الفصـل الثالث

الرسول صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى في الحياة

لقد مثلت حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – أعمالاً كثيرة متنوعة، بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة، والمنهج الأعلى للحياة الإنسانية في جميع أطوارها، لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة والعواطف النبيلة المعتدلة، والنوازع العظيمة القويمة.

وأياً من كنت، وفي أي شأن كان شأنك، فإنَّك مهما أصبحت أو أمسيت، وعلى أي حال بت أو أضحيت، فلك في حياة محمد – صلى الله عليه وسلم – هداية حسنة، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة، ويتجلى لك بضوئها ظلام العيش، فتصلح ما اضطرب من أمورك، وتثقف بهديه أودك، وتقوم بسننه عوجك، وإنَّ السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق، وجماع التعاليم، لشعوب الأرض، وللناس كافة، في أطوار الحياة كلها، وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها، فالسيرة المحمدية نور للمستنير، وهديها نبراس للمستهدي وإرشادها ملجأ لكل مسترشد(٧٩) . قال تعالى : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»(٨٠) يقول سيد قطب : «وقد كان رسول الله – صى الله عليه وسلم – على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان، وإنَّ دراسة موقفه – صلى الله عليه وسلم – في هذا الحادث الضخم لمًا يرسم لقادة الجماعات الإسلامية، والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. وتطلب نفسه القدوة الطيبة، ويذكر الله ولا ينساه(٨١) .

والأسوة بكسر الهمزة وضمها اسم لما يؤتس به، أي يقتدي به ويعمل مثل عمله. وحق الأسوة أن يكون المؤتس به هو القدوة ولذلك فحرف (في) جاء على أسلوب ما يسمى بالتجريد المفيد للمبالغة إذ يجرد من الموصوف بصفة موصوف مثله ليكون

---

٧٩ – السيرة النبوية، للندوي، ص ٣٨٦، والرسالة المحمدية ص ١١٣٧.

٨٠ – سورة الأحزاب، آية ٢١.

٨١ – في ظلال القرآن، جـ ٥، ص ٢٨٤١، ومعلوم أنَّ هذه الآية نزلت في غزوة الأحزاب التي اشتد فيها البأس على المسلمين، فصبر فيها رسول الله ولذلك أمرهم الله بأن يقتدوا به صلى الله عليه وسلم.

كذاتين، كقول أبي خالد الزنجي : وفي الرحمان للضعفاء كاف.

أي الرحمان كاف، فالأصل : رسول الله إسوة، فقيل في رسول الله إسوة، وجعل متعلق الائتساء ذات الرسول - صلى الله عليه وسلم - دون وصف خاص ليشمل الأئتساء به في أقواله بامتثال أوامره.

واجتناب ما ينهي عنه، والائتساء بأفعاله من الصبر والشجاعة والثبات، وفي الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأنه الأسوة الحسنة لا محالة، ولكن ليس فيها تفصيل وتحديد لمراتب الائتساء والواجب منه والمستحب[٨٢] ويقودنا الحديث عن هذه الآية إلى بيان أفعاله عليه الصلاة والسلام بإيجاز.

أفعال النبي صلى الله عليه وسلم

قسم العلماء أفعال النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثلاثة أقسام :

أولها : أعمال تتصل ببيان الشريعة، كصلاته صلى الله عليه وسلم وصومه وحجه ومزراعته واقتراضه، فإنَّ هذا النوع يكون شرعاً متبعاً، فالبيوع التي تولاها النبي صلى الله عليه وسلم يكون توليه لها دليلاً على إباحتها، وما كان فيه من أعمال دينية يكون تفصيلاً لمجمل القرآن. وعلى ذلك نقول إنَّ أفعال النبي صلى الله عليه وسلم التي تكون بياناً للشريعة قسمان : أفعال هي بيان لمجملها، وأفعال فعلها يدل على إباحتها، وكلا القسمين يفيد العموم في أحكامه، فلا يختص بالنبي صلى الله عليه وسلم.

القسم الثاني : أفعال من النبي صلى الله عليه وسلم قام الدليل على أنها خاصة به، ومن ذلك التزوج بأكثر من أربع زوجات[٨٣] .

القسم الثالث : أعمال يعملها بمقتضى الجبلة البشرية أو بمقتضى العادات الجارية في بلاد العرب كلبسه صلى الله عليه وسلم وأكله وما كان يتناوله من حلال وطرق تناوله، وغير ذلك من أفعال كان يتولاها بمقتضى البشرية، والطبيعة الانسانية وعادات قومه.

---

٨٢ - تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، جـ ٢٠، ص ٣٠٢، ٣٠٣.

٨٣ - وكاكتفائه في إثبات الدعوى بشهادة خزيمة وحده لأن النصوص صريحة في أن البنية شاهدان. انظر علم الوصول الفقه. عبد الوهاب خلاف ص ٤٤، دار القلم الكويت، ط ٦ سنة ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.

ومن الأمور ما اختلف فيه بعض العلماء، من حيث كون فعل النبي صلى الله عليه وسلم أو تلبسه به كان من قبيل بيان الشرع أو من قبيل العادات كتربيته لحيته عليه السلام بمقدار قبضة اليد، فذهب كثير من أهل العلم على أنه من السنة المتبعة، واستدلوا على ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم : «قصوا الشارب وأعفو اللحي»[٨٤] فقالوا إنَّ هذا دليل على أنَّ إبقاء اللحية لم يكن عادة. بل كان من قبيل حكم شرعي.

والذين قالوا إنَّه من قبيل العادة، لا من قبيل البيان الشرعي قرروا أنَّ النهي الذي لا يفيد اللزوم بالاجماع وهو معلل بمنع التشبيه باليهود والأعاجم الذين كانوا يطيلون شواربهم ويحلقون لحاهم، وهذا يزكي أنَّه من قبيل العادة، وقد اختار هذا القول الشيخ محمد أبو زهرة[٨٥] ومن المستغرب بشأن هذا الرأي أنه شائع في أوساط شيوخ ينتسبون إلى العلم، ومع قولهم هذا - أي أنها من قبيل العادة - يقدم أكثرهم على حلقها، مع أنه يفترض في أهل العلم أن يتأسوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، لا جرم أنهم دعاة والداعية قدوة لمن يدعوهم.

أهمية هذا الرأي هو أنه - بموجب اعتبار اللحية، سنة عادة، فإنه يجيز حلقها طالما كانت السنن غير واجبة الأداء.

والمرتكز لرأي هؤلاء العلماء هو قاعدة أصولية أيضاً، ولكن «في الأوامر» فالأوامر، التي تصدر عن الله عز وجل، أو عن رسوله مختلف في مقتضياتها أي : «إن كان الأصل في الأمر أنه للوجوب، ولا ينصرف عنه إلى الندب أو غيره إلا بقرينه، أو أنَّ الأصل فيه أنه للندب، أو غير ذلك، مما لا متسع لتفصيله هنا[٨٦] .

---

٨٤ - ورد هذا الحديث بروايات كثيرة، فرواه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة. (وفروا) والبخاري في اللباس والنسائي في الزينة (ارخو) والترمذي في الأدب، واللفظ الذي أثبته رواه البخاري في اللباس، ومسلم في الطهارة.

٨٥ - انظر أصول الفقه، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربي، ص ١١٥.

٨٦ - اختلف الأصوليون في صيغة «افعل» فذهب فريق منهم إلى أنه حقيقة في الوجوب فقط، ونسبه الإمام الشوكاني في «إرشاد الفحول» إلى الجمهور وقال : «وصححه ابن الحاجب والبيضاوي، قال الرازي : وهو الحق، وذكر الجويني أنه مذهب الشافعي، قيل وهو الذي أملاه الأشعري على أصحابه» اهـ (المقصود الرابع - مباحث الأمور - الفصل الثالث) أقول : «وهو مذهب الظاهرية والسلفيين، وذهب الأمدي في الأحكام إلى أن صيغة الأمر حقيقة في الطلب، والقرائن هي التي تصرفه إلى مقتضاه، وهو

وقد اصطلح أهل الأصول على جعل التأس لقباً لاتباع الرسول في أعماله التي لم يطالب بها الأمة على وجه التشريع[87] .

ويشرح العلامة ابن كثير الآية المتقدمة وهي قول الله تعالى : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»[88] بقوله : هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأس برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، قال : ولهذا قال للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال تعالى : «لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»[89] والتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم هو إتباع للقرآن الكريم لأن عليه الصلاة والسلام كان يجسد القرآن بسلوكه القولي والعملي، وخير ما يصف لنا ذلك هو ما روى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : «كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، ثم قالت : أتقرءون سورة المؤمنين؟ قلنا : نعم، فقالت : ليزيد بن بابنوس، إقرأ، فقرأ «قد أفلح المؤمنون – حتى بلغ قوله تعالى : والذين هم لفروجهم حافظون» الآيات[90] .

وقد اثنى الله تعالى على خلق نبينا الكريم في القرآن الكريم بقوله جل شأنه : «وإنّك لعلى خلق عظيم»[91] .

= خمسة عشر اعتباراً» انظر (الاحكام في أصول الأحكام – الأصل الرابع – النوع الثاني – الباب الأول – القسم الأول – الصف الأول – البحث الرابع – المسألة الثانية)، كما أن المسألة تفاصيل تراجع في كتب الأصول، مبحث الأوامر والنواهي.

٨٧ – انظر التحرير والتنوير، جـ ٢٠، ص ٣٠٢–٣٠٣.

٨٨ – سورة الأحزاب، آية : ٢١.

٨٩ – تفسير ابن كثير، جـ ٣، ص ٤٠٦، وانظر زاد المسير في علم التفسير، جـ ٦، ص ٣٦٨.

٩٠ – سورة المؤمنون، الآيات من ١–٥، وانظر كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم للحافظ الأصبهاني، ص ٢٨.

٩١ – القلم، آية ٤.

قال أهل العلم : المراد بالخلق العظيم. هو الإسلام والدين، حكي ذلك الواحدي عن الأكثرين وقيل : هو القرآن، روى هذا عن الحسن والعوفي، وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عما نهى الله عنه. قال الزجاج : إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن.

وقيل هو : رفقه بأمته وإكرامه. وهذه الأقوال يمكن أن تكون جميعاً معنى للآية الكريمة. فلا شك أن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تتمثل الإسلام والدين الذي جاءت أحكامه في القرآن الكريم، فكان صلى الله عليه وسلم متبعاً لأحكام القرآن منفذاً لأوامره مجتنباً لنواهيه، ولا غرو أن تصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خلق رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بقولها «كان خلقه القرآن»[٩٢] .

ولا عجب أن يكون الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على هذا الخلق العالي، فإنه إقتدى بهدي الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام كما أمره ربه بقوله : «أولئك الذين هدى الله فبهداهم أقتده»[٩٣] فإنَّ الأنبياء قد وصفهم الله تعالى بالهداية والاحسان والصلاح والفضل على العالمين، فالهداية إلى الصراط المستقيم وبأنهم أوتوا الكتاب والحكم والنبوة ثم أقتدى بهم رسولنا صلى الله عليه وسلم في هداهم وأخلاقهم ومناقبهم ومن يتخلق بأخلاق هؤلاء الرسل الكرام جميعاً، ويهتدي بهداهم في أقواله وأفعاله وأحواله، لاشك أن يكون على أعظم خلق وأكمل هداية[٩٤] . ومن كان هذا شأنه كان أسرع الناس في الخيرات وأبعدهم عن المعاصي والموبقات.

ومن كانت هذه أخلاقه كان هو المثل الأعلى في حياة المسلم، والقدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.

خلاصة القول :

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن إنساناً عادياً، وإنما هو شخصية زودها الله

---

٩٢ – انظر فتح القدير للشوكاني، جـ ٥، ص ٢٦٧، وانظر : المسند لأحمد ٥١/٦، والمستدرك ٤٩٩/٢.

٩٣ – سورة الأنعام الآيات من ٨٣–٩٠.

٩٤ – عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، ص ١٩٥ بتصرف، د. محمد أبو النور الحديدي، وانظر زاد المسير لابن الجوزي، جـ ٨، ص ٤٢٨، والدر المنثور للسيوطي، جـ ٦، ص ٤٩٩، وتفسير ابن كثير، الجزء الرابع، في تفسير سورة القلم، آية : ٤.

تعالى بقوى بدنية وعقلية ونفسية وروحية تكاد تكون خارقة للعادة، لهذا كان المثل الأعلى في الحياة.

كما كان المثل الأعلى في سلوكه الفردي، وفي قيامه بحق الله تعالى، وفي صلاته بأسرته وأصحابه وسائر أصدقائه والناس أجمعين.

وفضلاً عن ذلك فإنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى في الوقوف مع الحق وتضحيته من أجله، ومواجهته الصعاب التي تعترضه بقوة وبسالة.

وهو المثل الأعلي في حربه وسلمه، في أحكامه وقضائه، في قيادته وسياسته وفي زهده في الدنيا وعزوفه عنها.

فكان العابد المتبتل، والقاضي العادل، والسياسي المحنك، والهادي الرشيد، والأب الحاني، والمعلم البار، والقائد المظفر، والصديق الوفي، والزوج الرفيق، والنبي الصالح الذي لم يعرف الناس بشراً سبقه في كماله أو لحق به.

وهو بهذا كان القدوة الطيبة، والأسوة الحسنة، والكمال البشري الذي جمع الله فيه صفات من تقدمه من الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وإذا أردنا تحديد مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلينا مراجعة القرآن الكريم، لمعرفة منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم في ضوء آياته البينات وبدراسة آيات القرآن الكريم نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تتمثل وظيفته فيما يأتي :

١ - الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبين للكتاب العزيز قال جل شأنه : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون»(٩٥) .

٢ - وضحت آيات القرآن أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة التي يجب على المسلمين أتباعه، يقول تعالى : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»(٩٦) .

٣ - وهو صلى الله عليه وسلم مطاع وجوباً، قال جل شأنه «يأأيها الذين آمنوا أطيعوا

---

٩٥ - سورة النحل، الآية ٤٤.

٩٦ - سورة الأحزاب، آية : ٢١.

الله ورسوله»[٩٧] وقال تعالى : «من يطع الرسول فقد أطاع الله»[٩٨] .

٤ – الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب سلطة تشريعية[٩٩] قال تعالى : «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث – إلى قوله تعالى : واتبعوه لعلكم تهتدون»[١٠٠] .

تضمنت هذه الآيات الأمر بالإيمان بالله ورسوله، كما تضمنت مقتضى هذا الإيمان وهو أتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يامر به ويشرعه، واتباعه كذلك في سيرته وعمله.

ولا يكفي الإيمان به بالقلب، ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملي الكامل لرسول الله صلى الله عليه فيما يبلغه عن ربه وفيما يشرعه ويسنه[١٠١] . ومما هو معلوم أن الله تعالى بعث رسوله صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق كما ورد عنه في الحديث المشهور فقد قال صلى الله عليه وسلم : «بعثت لأتمم محاسن الأخلاق»[١٠٢] .

٥ – إنَّ ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال في حال من الحالات الثلاث التي بيناها فهو من سنته، ولكنه ليس تشريعاً ولا قانوناً واجباً أتباعه.

وأمَّا ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال بوصف أنَّه رسول ومقصود به التشريع العام. واقتداء المسلمين به فهو حجة على المسلمين وقانون واجب أتباعه[١٠٣] .

---

٩٧ – سورة الأنفال، آية ٢٠.

٩٨ – سورة النساء، آية ٨٠.

٩٩ – دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، جـ ١، ص ١٣، د. محمد مصطفى الأعظمي.

١٠٠ – سورة الأعراف، الآيات ١٥٧–١٥٨.

١٠١ – انظر زاد المسير لابن الجوزي، جـ ٣، ص ٢٧٢، ٢٧٣، وتفسير ابن عطية، جـ ٦، ص ١٠٤.

١٠٢ – رواه الإمام مالك في الموطأ، ولفظه : «بعثت لأتمم حسن الأخلاق». وقد قال في شرح الزرقاني إنَّ الحديث مروي برجال الصحيح عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رواه أحمد وقاسم بن أصبغ، والحاكم وغيرهم، والرواية المشهورة : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

١٠٣ – انظر علم أصول الفقه، ص ٤٤ بتصرف، وأصول الفقه للشيخ محمد أبو زهرة ص ١١٤–١١٥ بتصرف.

٦ – فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى في طريقته في الحياة فكل ما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير مقصود به التشريع واقتداء الناس به لاهتدائهم. إلا ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودل الدليل الشرعي على أنه خاص به، وأنَّه ليس أسوة فيه فليس تشريعاً كما وضحنا ذلك بالأمثلة فيما تقدم، هذا وبالله التوفيق.

الفصل الرابع
أثر السيرة النبوية في الدعوة والتربية

إنَّ في الدنيا نوعين من المدارس : نوع يختص بفرع واحد من فروع المعرفة، كالطب أو الهندسة، أو التجارة أو الصناعة... الخ، ونوع يجمع هذه المعاهد العلمية كلها. وهذا النوع الثاني هو الذي تهرع إليه طوائف الطلبة من جميع البلاد فيجد فيه كل منهم ما تميل نفسه إلى التخصص فيه من العلوم، وبهذا سميت مجموعة هذه المعاهد باسم «الجامعة» ومنها يتخرج قضاة المحاكم والأطباء والمهندسون وقادة الجند... الخ. ومن البين الواضح للمتأملين أنَّ المجتمع الانساني لا يتم كماله، ولا تسعد حياته بضرب واحد من العلوم، ولا بصتف خاص من أهل الحرف والصناعات بل يحتاج إلى مجموع ذلك كله. وإذا استقصينا ما يعرفه التاريخ من سير الأنبياء ولاحظنا ما خلفوه من علم نافع، فإنّنا نجد لهؤلاء المعلمين الربانين والأنبياء والمرسلين، تلاميذ ومهتدين، فالواحد منهم يكون له عشرة تلاميذ، وآخر منهم يكون له عشرون تلميذاً، ونرى لبعضهم ستين أو سبعين، ومائة أو مائتين، وألفاً أو ألفين ونادراً ما يكون لأحد الأنبياء من التلاميذ والأصحاب ما يبلغ خمسة عشر ألفاً، أمَّا المدرسة الأخيرة من مدارس النبوة وهي مدرسة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كان تلاميذها يعدون بمئات الألوف(١٠٤) .

إنَّ مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت جامعة للناس من جميع الطوائف وكانت عامة للأمم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبقاتهم في الثقافة والمجتمع، وأنه لم

١٠٤ – الرسالة المحمدية : ص ١٢٢ بتصرف.

يكن هناك أي قيد يمنع أي إنسان من الالتحاق بها، فكأنها مأدبة كريم يدعو الجفلى. قال الله تعالى مخاطباً لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[١٠٥] هذا إعلان فريد من نوعه جاء في كتاب خالد قدر الله سبحانه وتعالى له أن يتلى في كل مكان وزمان، ويبلغ عدد قرائه ملايين الملايين، وقال عنه : «إنَّا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون»[١٠٦] . فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يقل إننا أرسلناك رحمة لجزيرة العرب، أو للشرق أو للغرب أو لقارة مثل آسيا مثلاً، بل إنه قال : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[١٠٧] . فالرسول - صلى الله عيله وسلم - أتحف الإنسانية بما وضع من أسس الدعوة وقواعد التربية التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشري وإصلاحه وإرشاده، ونهضته وازدهاره، والتي خلقت عالماً مشرقاً جديداً لا يشبه العالم القديم في شيء. وذلك من خلال تربيته للإنسانية على الأسس الآتية :

١ - عقيدة التوحيد النقية الواضحة :

مأثرته الأولى : صلى الله عليه وسلم - أنه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصافية الغالية، فهي عقيدة ثائرة معجزة، متدفقة بالقوة والحياة، مقلبة للأوضاع، مدمَّرة للآلهة الباطلة لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة، إنَّ الانسان كان يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع. «وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب»[١٠٨] ، فكانت هذه التحفة أغلى التحف التي سعدت بها الإنسانية بفضل بعثته صلى الله عليه وسلم[١٠٩] .

٢ - مبدأ الوحدة الإنسانية والمساوة البشرية :

ومأثرته الثانية العظيمة، ومنته الباقية السائدة في العالم، هو تصور الوحدة الإنسانية، فقد أعلن صلى الله عليه وسلم بعد قرون طويلة من الصمت المطبق، والظلام السائد، ذلك الإعلان الثائر، المقلب للأوضاع : «أيها الناس إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم

---

١٠٥ - سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

١٠٦ - سورة الحجر، آية ٩.

١٠٧ - السيرة المحمدية لأبي الحسن الندوي، ص ٣٨٨.

١٠٨ - سورة الحج، آية ٧٣.

١٠٩ - السيرة النبوية، ص ٤٠٤.

واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[١١٠] .

٣ - إعلان كرامة الإنسان وسموه :

والمنة الثالثة العظيمة على النوع البشري، هو إعلان كرامة الإنسان وسموه، وشرف الإنسانية وعلو قدرها، لقد بلغ الإنسان قبل البعثة المحمدية إلى حضيض الذل والهوان، فلم يكن على وجه الأرض شيء أصغر منه وأحقر، لقد رفع الإسلام الإنسان، وجعله خليفة عن الله في الأرض، خلق الله العالم للإنسان، «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً»[١١١] وأنه أشرف خلق الله، وفي مكان الرئاسة والصدارة «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً»[١١٢] .

٤ - محاربة اليأس والتشاؤم وبعث الرجاء والاعتزاز في نفس الإنسان :

الأساس الرابع : إنَّ أكثر أفراد النوع الإنساني كانوا مصابين باليأس عن رحمة الله، وبسوء الظن بالفطرة الإنسانية السليمة، لقد فتح النبي صلى الله عليه وسلم أمام المذنبين الخطائين، الغارقين في حمأة المعصية، باباً واسعاً للتوبة، ودعا الناس إليها دعوة عامة، وشرح فضل التوبة شرحاً وافياً، بل إنه رفع من شأنها حتى صارت من أفضل العبادات، والقربات عند الله، وصارت طريقاً سهلاً للوصول - في أقرب وقت - إلى أقصي درجات القرب والولاية، يغبط عليها النساك والزهاد، والأبرياء والأطهار من عباد الله، قال تعالى : «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً، إنَّه هو الغفور الرحيم»[١١٣] وأكثر من ذلك وأروع ما نجد في الآية التالية حيث ذكر الله سبحانه جماعات مختلفة من عباده الصالحين، فاستهل هذه القائمة المشرقة النورانية بالتائبين، إنها آية من سورة (التوبة) «التائبون العابدون الحامدون، السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن

---

١١٠ - كنز العمال، وانظر السيرة النبوية، ص ٤٠٤ .

١١١ - سورة البقرة، آية : ٢٩.

١١٢ - سورة الاسراء، آية ٧٠.

١١٣ - سورة الزمر، آية ٥٣.

المنكر، والحافظون لحدود الله، وبشر المؤمنين»[114] . هذا التكريم وتبرئة العبد من ذنبه واظهار الثقة به تجلى واضحاً حين أعلن القرآن قبول توبة ثلاثة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[115] ، هل هناك مثال أروع وأجمل، وأدق وأعمق، لقبول التوبة، وتكريم التائب. ومسح غاشية الكآبة عنه بلطف وود، وحب وحنو في تاريخ الأديان والأخلاق، والتربية والاصلاح من هذا المثال؟

٥ - الأساس الخامس : الجمع بين الدنيا والآخرة وتوحيد الصفوف :

لقد وزعت الديانات القديمة خاصة المسيحية الحياة الإنسانية في قسمين، قسم للدين، وقسم للدنيا، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين معسكر رجال الدين، ومعسكر رجال الدنيا.

وأعظم هدية للبعثة المحمدية، نداؤها الذي دوَّت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق النية، فقال صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[116] . إنَّ حياة المؤمن يقودها الإيمان بالله والإسلام لأوامره، وهي تشمل شعب الحياة كلها، وأصناف العمل كلها، إذا تحقق الإخلاص، وصحت النية، وأريد بها وجه الله، وكانت على المنهج الصحيح الذي جاء به الأنبياء فدل ذلك على أنه رسول الوحدة والوئام، وأنه البشير والنذير في نفس الوقت، إنه قضى على نظرية الإنفصال بين الدين والدنيا، فجعل الحياة كلها عبادة، وجعل الأرض كلها مسجداً، وأخذ بيد الإنسان من معسكرات متحاربة متصارعة إلى جبهة واحدة، واسعة من العمل الصالح.

٦ - المأثرة السادسة : تعيين الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح :

هذا الهدف الذي أحدثه محمد - صلى الله عليه وسلم - في الحياة البشرية، أنه هدى الإنسان إلى محل لائق كريم يصرف فيه قواه، ورفعه إلى أجواء فسيحة عالية يحلق فيها. كان الإنسان قبل البعثة المحمدية جاهلاً لهدفه الحقيقي، لا يدري إلى أين يتجه، وإلى أين المصير؟ وكان المثل الأعلى عنده للرجل الناجح واللامع من يكون أكثر

---

١١٤ - سورة التوبة، آية ١١٢.

١١٥ - انظر فتح الباري، جـ ١، ص ٣١، وصحيح البخاري كتاب المغازي، زاد المعاد، جـ ٢، ص ٣-٤ وسيرة ابن هشام، جـ ٢، ص ٥٢٢، والسيرة النبوية للندوي، ص ٣١٥.

١١٦ - متفق عليه. وانظر السيرة النبوية للندوي، ص ٤١٦.

جمعاً ومالاً، وأوسع نفوذاً وقوة، فجاء محمد - صلى الله عليه وسلم - وجعل غايته الأخيرة الحقيقة، وهدفه الأعلى المنشود نصب عينيه، هو معرفة فاطر السموات والأرض، وأن المجال الحقيقي لجهد الإنسان هو الفوز برضوان الله وحده، والرضا به وبقدره، وتلك هي السعادة الحقيقية للإنسان ونهاية كماله ومعراج قلبه وروحه. لقد تغيرت الدنيا بعد بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - وبفضل تلك التعاليم السامية، كما يتغير الطقس، وانتقلت الإنسانية من فصل كله جدب وسموم وحميم، إلى فصل كله ربيع وأزهار، وجنات تجري من تحتها الأنهار، تغيرت طباع الناس، وأشرقت القلوب بنور ربها، وعم الإقبال على الله، واطلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه، وهيام لم يعرفه من قبل، ولم يصل الإنسان إلى تلك الدرجة الرفيعة إلا بفضل ما وضعه رسوله الله - صلى الله عليه وسلم - من قواعد التربية وأصول الدعوة إنطلاقاً من قول الله تعالى : «قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة»[١١٧] .

إن إسلام الوجه لله تعالى هو الذروة من مكارم الأخلاق، وهو جوهر التدين إنَّه الدين القويم، والنص الإلهي الفريد في العالم كله، الذي يبين كيفية إسلام الوجه لله، إنما هو القرآن، وإذا وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله كان بذلك في ذروة الإنسانية، وفي الذروة من مكارم الأخلاق، فكان أول الناس في إسلام الوجه لله تعالى هو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»[١١٨] .

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتلقنه النبي الكريم، وكان عمله فيه على ما يلي :

١ - الوعي والحفظ، ثم ٢ - الحكاية والتبليغ، ثم ٣ - البيان والتفسير، ثم ٤ - التطبيق والتنفيذ[١١٩] .

ولقد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعثة رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فقال

---

١١٧ - سورة يوسف، آية ١٠٨، وانظر السيرة النبوية للندوي، ص ٤٢٠ بتصرف.

١١٨ - سورة الأنعام : ١٦٢-١٦٣، وانظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. عبد الحليم محمود، ص ١٧ بتصرف.

١١٩ - النبأ العظيم، د. محمد عبد الله درازن، ص ٢٠، والظاهرة القرآنية، ص ٣٣٤.

تعالى : «لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة»[١٢٠] وقوله جل شأنه : «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين»[١٢١] .

والمراد بالكتاب في الآيتين الكريمتين : القرآن، (والحكمة) : السنة المتعلمة من لسان النبي صلى الله عليه وسلم[١٢٢] .

وقوله جل شأنه : «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»[١٢٣] .

فإن الذي يفهم من سياق هذه الآيات الكريمة، والذي تقتضيه الحكمة، أنَّ التلاوة أسبق في الترتيب من التزكية (بمعني التطهير والتربية) ومن التعليم لتفاصيل الدين.

والتلاوة إنما يفهم منها في الغالب المعني الاجمالي المتبادر إلى الأذهان بخلاف دروس التعليم المتأنية[١٢٤] .

وعلى هذا النهج الذي أشار إليه القرآن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير، فكان يقرأ على أصحابه ما نزل من القرآن، ويأخذهم بالعمل أولاً بأول[١٢٥] .

وعلى هذا المنهج كانت توجيهات رسول الله الكريم – صلى الله عليه وسلم – ولا غرو في ذلك فقد أوتي المصطفى جوامع الكلمة، وكانت كلماته قليلة يحصيها العاد تضيء في الحال طريق العمل، وتلبي حاجة المتعجل، وإن كان لها في ذات الوقت أعماق بعيدة، لا يبلغ الدارس الواعي مداها.

ومن الأمثلة على ذلك : ما روي عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال

---

١٢٠ – سورة آل عمران، آية ١٦٤.

١٢١ – سورة الجمعة، آية ٢.

١٢٢ – تفسير ابن عطية، جـ ٣، ص ٤١٠، وفتح القدير للشوكاني، جـ ١، ص ٣٩٥.

١٢٣ – سورة البقرة، آية ١٥١.

١٢٤ – أصول الأخلاق في ضوء القرآن، د. عبد الستار محمد نوير، بحث في مجلة كلية الشريعة جامعة قطر، العدد السابع ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، ص ٣٧٨ بتصرف.

١٢٥ – المصدر السابق.

يا رسول الله : إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به[126] قال : «لايزال لسانك رطباً من ذكر الله»[127] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن[128] .

وما روي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» ومعنى طليق : أي متهلل بالبشر والابتسام، الحديث رواه مسلم برقم (٢٦٢٦).

وكان صلى الله عليه وسلم يكرر الكلام ليفهم، روى أنس رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم : كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً، رواه البخاري في صحيحه جـ ١، ص ١٦٩، ١٧٠.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلاماً فصلاً يفهمه كُلُّ من يسمعه. رواه أبو داود[129] . وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ذلك توجيهات كثيرة تتعلق بالتفاصيل ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يهمل الأسلوب الذي ذكرته، بل كان كثيراً ما كان يعول عليه، وهو الملاحظ في إرشاده وتعليمه.

وعلى هذه التربية الكريمة نشأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليها درجوا، فكانوا مصابيح تضيء للناس في ظلمات هذه الحياة، ولا عجب فلقد اقتبسوا ذلك من معين النبوة، ومنبع الفضل والكمال فلقد ربى النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم أصحابه على روح الجهاد والكفاح، والزهد في هذه الحياة الزائلة الفانية[130] .

---

١٢٦ – أتشبث به : أتعلق به، انظر هامش رياض الصالحين للنووي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ص ٥٤٠.

١٢٧ – قوله صلى الله عليه وسلم : «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» قال الطيبي : رطوبة اللسان عبار عن سهولة جريانه، كما أن يبسه عبارة عن ضده، ثم إنَّ جريان اللسان عبار عن مداومة الذكر، فكأنه صلى الله عليه وسلم قال : دوام الذكر، فهو من أسلوب قوله تعالى : «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» سورة آل عمران آية ١٠٢.

١٢٨ – أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٧٢) وأخرجه أحمد في مسنده، جـ ٤، ص ١٨٨، وابن حبان في صحيحه برقم : ٢٣١٧، والحاكم في مستدركه، جـ ١، ص ٤٩٥، ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا.

١٢٩ – أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٨٣٩) وسنده حسن، وقوله : كلاماً فصلاً، أي : بيناً ظاهراً.

١٣٠ – من كنوز السنة، الشيخ محمد علي الصابوني، ص ٦٤.

وقد حض النبي صلى الله عليه وسلم على التبليغ في أخبار كثيرة، ودعا لأصحابه فقال صلى الله عليه وسلم : «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها حتى يبلغها غيره»[١٣١] .

وقال صلى الله عليه وسلم في خطبته : فليبلغ الشاهد منكم الغائب[١٣٢] وقال صلى الله عليه وسلم : «بلغوا عنّي ولو آية وحَدّثوا عنّي ولا حرج»[١٣٣] . ولقد بينت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل التعلم وآدابه وحدوده، وفضل التعليم ومنزلته، وما يجب له من شروط، وما ينبغي له من آداب وغالت بالمعلم ورفعته مكاناً علياً.

ومن أدب المعلم في الإسلام كما جاء ذلك في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرفق بالمتعلم، ويأخذ بيده ويعامله معاملة الأب لولده، مقتدياً بالمعلم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه الله تعالى بقوله : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»[١٣٤] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم، أرفق الناس بالمتعلمين، وأبعدهم عن التشديد والتعسير، والفظاظة، والغلظة، وهذا ما نوه به القرآن من أخلاقه، صلى الله عليه وسلم «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر»[١٣٥] .

وكان الرجل يأتي من البادية، ويخاطبه باسمه مجرداً، ويناديه من بعد، ويكلمه

---

١٣١ – أخرجه الترمذي بمعناه من حديث عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – وقال : هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي : جـ ٤، ص ١٤٢، وقد قام الشيخ الأستاذ عبد المحسن بن محمد العباد بدراسة هذا الحديث دراسة خاصة، واستوفى جميع طرقه وألفاظه، وذكر أن الحديث متواتر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد رواه عنه أربعة وعشرون صحابياً، انظر : دراسة حديث نضر الله امرءاً سمع مقالتي – رواية ودراية، ص ٢٢٧، وانظر : كتاب صحابة رسول الله في الكتاب والسنة، الدكتور عيادة أيوب الكبيسي، ص ١٨٧.

١٣٢ – متفق عليه، أخرجه البخاري : كتاب العلم، باب تبليغ العلم الشاهد الغائب : ٣١/١، ومسلم كتاب القسامة باب " تغليظ تحريم الدعاء والأعراض والأموال، ١٣٠٦/٣.

١٣٣ – أخرجه البخاري بلفظ : وحد ثواعن بني إسرائيل ولا حرج : ٢٥٨/٢.

١٣٤ – سورة التوبة، آية ١٢٨.

١٣٥ – سورة آل عمران، آية ١٥٩.

بجفوة، وأحياناً يستوقفه في الطريق، فيسع هذا كله لحلمه وحسن خلقه، ويجيبه عما سأل، وأكثر مما سأل، وقديهم أصحابه أو يثورون في وجهه فيهدىء من ثورتهم، ويسكن من غضبهم[١٣٦] والأمثلة على ذلك كثيرة[١٣٧] .

ومن سيرته عليه الصلاة والسلم أنه يشفق على المخطىء ويترفق به، والرسول صلى الله عليه وسلم أعظم نموذج للرفق بالمتعلمين إذا اخطأوا فقد كان - عليه الصلاة والسلام - يقدر الظروف ويراعي الأحوال، ويسع الناس جميعاً، حتى ذلك الأعرابي الجلف الذي لم يخجل أن يبول في ركن من المسجد أمام الناس، لم يغلظ عليه وقابله بما ينبغي لمثله من الرفق واللين.

روى مسلم في صحيح عن أنس قال : «بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم مه مه! (كلمة زجر) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزرّموه، دعوه» فتركوه حتى بال. ثم إنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعاه فقال له : «إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر إنما هي لذكر الله عز وجل أو الصلاة، وقراءة القرآن - أو كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه عليه»[١٣٨] .

فقد راعى النبي صلى الله عليه بداوة الرجل، وظروف حياته، وعرف أصحابه أن علاج الأمر سهل في مسجد لم يكن مفروشاً إلا بالحصباء، وهو صب دلو من ماء، ثم نبههم على طبيعة رسالتهم التي كلفهم الله تعالى حملها للإنسانية جمعاء وهي التيسير

---

١٣٦ - الرسول صلى الله عليه وسلم والعلم، الدكتور يوسف القرضاوي، ص ١١٩ فما بعدها.

١٣٧ - من أمثلة ذلك ما روي عن أبي أيوب : أن أعرابياً عرض لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في سفره، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال : «يا رسول الله أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني عن النار؟ قال : فكف النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم نظر في أصحابه، ثم قال : لقد هدي. قال ؛ كيف قلت؟ فأعادها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دَعِ الناقة» رواه البخاري ومسلم واللفظ له. ترغيب ٣٦٣٥.

١٣٨ - صحيح مسلم رقم ٢٨٥، باب (٣) كتاب الطهارة، جـ ١، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، واخرجه البخاري في صحيحه بألفاظ قريبة من ذلك.

لا التعسير[١٣٩] .

كما انطلق النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – في دعوته من قول الله جل علاه: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»[١٤٠] .

فكان صلى الله عليه وسلم يقتصد في وعظه ولا يطيل مخافة السآمة.

روى الشيخان عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال : كان ابن مسعود رضي الله عنه يذكرنا في كل خميس، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كُلَّ يوم، فقال أما إنه ما يمنعني من ذلك أنّي أكره أن أمِلَّكم وإنّي أتخولكم بالموعظة، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا، متفق عليه[١٤١] .

وروى مسلم عن أبي اليقظان عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إنَّ طول صلاة الرجل، وقِصَرَ خطبته، مَئِنَّةٌ من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة»[١٤٢] .

قوله صلى الله عليه وسلم (مَئِنَّةٌ) بميم مفتوحة، ثم همزة مكسورة، ثم نون مشددة، أي علامة دالة على فقهه[١٤٣] .

---

١٣٩ – الرسول والعلم، ص ١٢٢ بتصرف.

١٤٠ – سورة النحل، آية ١٢٥.

١٤١ – البخاري، جـ ١، ص ١٥٠، ومسلم (١، ٢٨) وأخرجه أحمد ١/٣٧٧، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٤٠.

١٤٢ – صحيح مسلم برقم (٨٦٩)

١٤٣ – رياض الصالحين للنوي، ص ٣٢٥.

خلاصـة القـول :

١ - السيـرة النبوية مصـدر متـجدد النفع للأمة الاسـلاميـة في إرشـاد الفكر وتـوجيـه السلوك، وبناء المجتمع الإنساني على ركائز ثابتة.

٢ - السيـرة النبوية وضعت أسس ومبادىء التعليم على ما أفضل ما توصل إليه علماء التربية المعاصرون.

٣ - كان النبي صلى الله عليه وسلم أرفق الناس بالمتعلمين وأبعدهم عن التشديد، وهذا ما نحتاج إليه في تعليمنا للناس جميعاً.

٤ - أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعت الناس جميعاً فكان صلى الله عليه وسلم يشفق على المخطىء ويقدر ظروفه ويراعي أحواله.

٥ - كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله تعـالى بالحكمـة والموعظة الحـسنة، كما أمره ربه في كتابه الكريم.

٦ - إن دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعطي المعلم والداعية الإسلامي نموذجاً حياً عن طرائق التربية والتعليم.

وختاماً أحمد الله تعالى وأشكره على توفيقه لتتميم هذا البحث، وأتضرع إليه جل علاه أن يرزقني حسن التمسك بسيـرة حبـيبنا المصطفى صلى الله علي وسلم، وأن يتجاوز عما وقع في هذا البحث من زلات وأخطاء، وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع الأساسية مرتبة حسب ورودها في البحث[1]

١ – الرسالة المحمدية، السيد سليمان الندوي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٠٤هـ.

٢ – تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور محمد الطاهر، الدار التونسية سنة ١٩٨٤م.

٣ – السيرة النبوية السيد الحسن الندوي، دار الشروق جدة، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ – ابريل ١٩٧٧م.

٤ – المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، مكتبة لبنان، سنة ١٩٨٧م.

٥ – مختار الصحاح للجوهري، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الكتاب العربي بيروت، ط ١، سة ١٩٦٧م.

٦ – لسان العرب لابن منظور الافريقي، طبعة بيروت، سنة ١٣٧٥هـ.

٧ – القاموس المحيط، الفيروز أيادي، دار الجيل، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٨ – زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط ٤٠، سنة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٩ – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د. مصطفى السباعي، ط ١، القاهرة سنة ١٣٨٠هـ.

١٠ – توجيه النظر إلى أصول الأثر : طاهر الجزائري – ت ١٣٣٨هـ مصورة المكتبة العلمية في المدينة المنورة، دون تاريخ.

١١ – دراسات في الحديث النبوي، وتاريخ تدوينه، د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

١٢ – لمحات في أصول الحديث، د. محمد أديب الصالح، المكتب الإسلامي، ط ٥، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

١٣ – دراسات في السيرة وعلوم السنة، د. موسى شاهين، ود. صلاح شلبي، مطبعة الفجر الجديدة.

١٤ – تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير، ٧ مجلدات، دار الأندلس، بيروت، دون تاريخ.

٥١ – الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، الطبعة الثالثة، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات العلمانية سنة ١٤٠٣هـ.

١٦ – السيرة النبوية : للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعاقري ت ٢١٣هـ – شركة الطباعة الفنية المتحدة.

١٧ – صحيح البخاري : للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر – بيروت.

---

١ – أما مواضع الآيات، ومراجع الأحاديث فقد اكتفيت بذكرها في محلها من البحث، وهناك مراجع أخرى مثبتة على هوامش الصفحات لم أذكرها مع المراجع خشية الإطالة.

١٨ – صحيح مسلم : للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٩ – تفسير الطبري : تحقيق محمود محمد شاكر، وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر.
٢٠ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، مؤسسة الرسالة.
٢١ – خاتم النبيين – صلى الله عليه وسلم – محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت.
٢٢ – فقه السيرة، د. محمد سعيد البوطي، دار الفكر، طبعة ٦، سنة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.
٢٣ – السيرة النبوية : للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير، دار الفكر، بيروت.
٢٤ – مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة سنة ١٩٤٩م.
٢٥ – السنن لأبي داود السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين، ط ٢، القاهرة، سنة ١٣٦٩هـ.
٢٦ – السنن للترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، دون تاريخ.
٢٧ – أسباب النزول للواحدي النيسابوري، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط ١، ١٣٧٩هـ.
٢٨ – فتح الباريء، شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مصورة دار المعرفة، بيروت، سنة ١٣٠٠هـ.
٢٩ – أحكام القرآن لابن العربي : تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر، دون تاريخ.
٣٠ – روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني : للإمام شهاب الدين السيد محمود الألوس البغدادي، إدارة الطباعة المنيرة، مصورة بدار احياء التراث العربي، بيروت.
٣١ – البداية والنهاية : للإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي – ت ٧٧٤ هـ، مكتبة المعارف – بيروت.
٣٢ – الجامع لأحكام القرآن : للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.
٣٣ – زاد المعاد من هدى خير العباد : لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية عام ١٤٠١هـ.
٣٤ – عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ابن سيد الناس، ط ٢، بيروت سنة ١٩٧٤م.
٣٥ – شرح الإمام النووي على صحيح مسلم : للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة، دون تاريخ.
٣٦ – تاريخ الطبري : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٦١م.

٣٧ – المستدرك، للإمام الحاكم، أربعة مجلدات، طبعة حيدر أباد، الهند.
٣٨ – سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار احياء الكتب العربية، عيسى الحلبي بمصر.
٣٩ – السنن الكبرى، للبيهقي، طبعة ١، مطبعة دائرة المعارف، حيدر أباد الهند سنة ١٣٤٤هـ.
٤٠ – في ظلال القرآن، الاستاذ سيد قطب، دار الشروق، ط ١٣٠، سنة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
٤١ – علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، دار القلم، الكويت، طبعة سادسة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م.
٤٣ – إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : للإمام محمد بن علي الشوكاني، ت ١٢٥٥ هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – الطبعة الأولى.
٤٤ – الإحكام في أصول الأحكام : للإمام سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد الأمدي، مطبعة محمد علي صبيح بميدان الأزهر، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٨م.
٤٥ – كتاب أخلاق النبي – صلى الله عليه وسلم وآدابه – للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله ابن محمد الأصبهاني، تحقيق أحمد محمد موسى، القاهرة سنة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
٤٦ – عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة ١٩٧٩م.
٤٧ – شرح الزرقاني : على موطأ الإمام مالك : محمد بن عبد الباقي الزرقاني مصورة، دار المعرفة، بيروت.
٤٨ – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. عبد الحليم محمود، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
٤٩ – النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط ٢، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.
٥٠ – تفسير ابن عطية المحرر الوجيز، لأبي محمد عبد الحق، بن عطية، الأندلس، إدارة احياء التراث الإسلامي، دولة قطر، ط ١، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
٥١ – رياض الصالحين، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرق النووي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، طبعة سادسة، عام ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.
٥٢ – صحيح ابن حبان : ترتيب الأمير علاء الدين الفارسي – تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان – مطبعة المجد – الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.
٥٣ – من كنوز السنة : الشيخ محمد علي الصابوني، دون ذكر اسم المطبعة وتاريخ الطبع.
٥٤ – صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الكتاب والسنة، د. عيادة أيوب الكبيسي، دار القلم دمشق، والمنارة بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.
٥٥ – الرسول والعلم. أ. د. يوسف القرضاوي، دار الصحوة للنشر بالقاهرة، حدائق حلوان.